

أمثلة من الترجمة

Jenny Erpenbeck
Gehen, ging, gegangen

Albrecht Knaus Verlag, München 2015

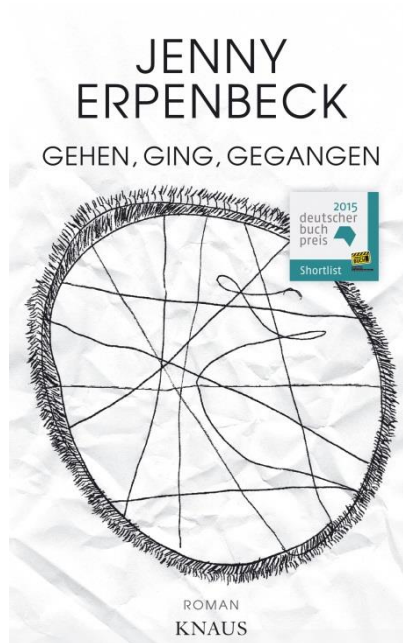
ISBN: 978-3-8135-0370-8

صفحات 72-58

جيني اربنبيك

رحل، يرحل، رحيل

ترجمة: هالة عنيم



المبنى المشيد بالطوب الأحمر والذي تم إيواء اللاجئين فيه مقفل بالمفتاح ، من الداخل. يفتح لهما الباب رجل في بدلة عمل زرقاء، بينما يجلس آخر في غرفة الاستقبال إلى طاولة مكتب قديمة.

- يقول المدير: مسؤولو الأمن مكلفون بتسلم بطاقتك الشخصية كل مرة تدخل فيها المبنى.
- تمام.
- لدواعي الحماية من الحريق: لا بد أن نكون في كل لحظة على دراية بعدد الأشخاص المتواجدين داخل المبنى.

تخطر ببال ريتشرد عبارة: "Wsjow porjadkje" وهي تعني "تمام" بالروسية، ولكنه يوميء برأسه فحسب، ويمد يده ليضع بطاقته الشخصية على الطاولة. كانت الخامة التي صُنعت منها سطح الطاولة الشبيهة بالخشب الطبيعي تسمى فيما سبق "شبريلاكارت"¹. لربما كانت الطاولة من مخلفات مكتب التضامن الشعبي أو الإدارة المحلية للحزب.

ها هما أخيراً يتخطيان المسؤول ذا البدلة الزرقاء، لينعطفًا يمينًا إلى ممر يؤدي إلى الدرج. فيمران أمام غرفة خُلعت بابها، توجد فيها طاولة بلياردو وبعض المقاعد التي جلس عليها ثلاثة شبان سود البشرة، أمسك كل منهم بعصا بلياردو في يده، ولكنهم لا يلعبون ولا يتحدثون، كما لم يرَ ريتشرد كرات على طاولة اللعب.

ضوء النيون ساطع وألواح زجاج من النوع المُعشّي، أما الدرج إلى الأعلى فيحفه درابزين ليموني الخضار، مشغول يدويًا بتفرعات زخرفية، وقد بدأت قشرة طلائه تتساقط في مواقع شتى.

- الطابق الأول غير مسكون، لا توجد به مياه، هكذا يشرح المدير.

ينعطفان في الطابق الثاني إلى ممر تصطف على جانبيه أبواب، تُثبت بينها على الجدار شريحة خشبية على ارتفاع متناسب مع مستوى مقابض الكراسي المتحركة ، لمنع الاحتكاك.

- هل يتواجد الرجال في هذا الوقت من النهار؟
- ستجد دائمًا أحدًا ما.

ما زالت على الأبواب أسماء المسنين الذين تم تسكينهم سابقًا. تُرى هل رحلوا عن الدنيا؟ أم نُقلوا إلى مكان آخر؟

- يقول المدير: أود أن أوضح أيضًا أنه مسموح للرجال بمغادرة البيت، وإن كنت أرى أنه من الأفضل أن تقوم بحواراتك معهم هنا.
- وهذا ملائم لي.
- يستأنف المدير قائلاً: كان ذلك مجرد خاطر. أي لغات تتحدث؟

¹sprelacart

- الإنجليزية، والروسية، وإن كانت هذه الأخيرة في الغالب ليست يهز المدير رأسه—والإيطالية.
- حسناً. فلنبداً إذن هنا.

يطرق المدير أحد الأبواب ويفتحة دون أن ينتظر ردًا، كما يفعل طبيب أو ممرض عند دخول عنبر المرضى. وكما هو الحال في عنابر المرضى يرى الزائر بعض المراقدين التي وضعت عليها مفارش. رقد على بعضها رجال نائمون، بينما كانت الأخرى خالية. يستند أحدهم إلى الجدار الخلفي للغرفة منصتًا إلى الموسيقى بسماعات أذن صغيرة. أما المرقدين الأمامي الذي وضع بالعرض أمام شاشة التلفزيون فتوسطه رجل ضخم الهيئة، جلس بجانبه ثلاثة آخرون. يشعر ريتشرد فورًا بالرغبة في العودة من حيث أتى. ولكن ها هو المدير يقدمه شخصيًا: بروفوسور، حوارات لمشروع بحث، بعض الأسئلة. يعرض التلفزيون برنامجًا عن صيد السمك. أسماك في الشباك، رجال في ملابس برتقالية اللون واقية من الماء، قوارب في العاصفة، ومياه متدفقة. تُرى هل يعرف الرجال في هذه الغرفة المقصود بمصطلح "بروفوسور"؟ يرى ريتشرد حقائب سفر تحت المراقدين، بينما اصطفت أزواج من الأحذية تحت بسطة الشباك. تلمح بعض النائمين بالأغطية ورقدوا في سكون وصمت تام، فبدوا كالموميوات. ها هو الرجل البدين الجالس على المرقدين أمام التلفزيون يوميء له قائلاً: لا مانع.

- يقول المدير قبل أن يودعه: سأترككم إذن بمفردكم.

يرتدي الرجل تي شيرت أحمر اللون تتصدره بالعرض عبارة لم يتمكن ريتشرد من قراءتها. يجول بخاطره أنه من الواضح نظرًا إلى حجم هذا الرجل أن اللاجئين ليسوا جميعًا بانسي الحال. يوميء الرجل باتجاه ريتشرد ويشد الملاءة على المرقدين ليسويها، ثم يدعو للجلوس. لا جلوس على سرير مفروش ببساط الشارع! ولكن ما من كرسي في هذا المكان. تُرى هل لعبارة "بساط الشارع" وجود في قاموس غريم للمفردات الألمانية؟ صيد السمك مهمة شاقة، خاصة في فصل الشتاء. يقوم الرجل الذي يبدو أنه صاحب السلطة والقرار في المكان بتقديم نفسه. اسمه رشيد. أما هذا فزائر، وذلك عبد السلام، والطويل يُدعى إيثميا. وهو؟ اسمي ريتشرد، ويشكر الرجال على استعدادهم للحديث معه. يُخرج بعد ذلك من حوزته الورقة التي دون عليها أسئلته.

أسفر مرور بعض الوقت عن التالي في مدونة ريتشرد: شمالي نيجيريا مسلم، وجنوبيها مسيحي. هرب المسيحيون من كدونا، عندما تم تطبيق الشريعة. كدونا؟ من اللغات المتداولة: يوروبا وهاوزا. يوروبا؟ هاوزا؟ تعتنق غالبية شعب اليوروبا المسيحية. ينتمي رشيد إلى شعب اليوروبا ولكنه مسلم. أما أفراد شعب هاوزا فهم عادة من المسلمين. وإن لا ينطبق ذلك على كل من يتحدث لغة هاوزا. فهي متداولة ومفهومة أيضًا في غانا والسودان و النيجر ومالي. كما تفهم غالبية اللغة العربية أيضًا. كل الرجال في هذه الغرفة من نيجيريا، وإن نزحوا من مناطق مختلفة بها. فرشيد مثلًا من الشمال، بينما أتى عبد السلام من الساحل. هل لنيجيريا ساحل؟ أما زائر فؤاد بالقرب من أبوجا. أبوجا؟ العاصمة. توجد أيضًا غرفة غانا وغرفة النيجر وهلم جرا... هكذا قمنا أيضًا بتنظيم الخيام في ميدان أورانيين بلاتس، لتسهيل الأمر على الجميع في الوصول إلى وجهتهم—يسترسل رشيد—نحن هنا في غرفة رقم 2017 مثلًا في نيجيريا. نعتبرها هكذا مجازًا. أخذ أحد النائمين يشخر بصوت مرتفع جدًا، لم يُشكل ذلك مدعاة لضحك أحد من الموجودين، بل لا يبدو أن هناك من

يلحظ الأمر. الرجل صاحب السلطة والقرار رشيد كان مع زاير الذي يجلس بجانبه في مركب واحد. أي نوع من النباتات تنمو في بلادكم؟ هل كانت لديكم حيوانات أليفة؟ هل تعلمت مهنة؟ حين أعلن حرس الحدود الإيطالية استعدادهم لاستقبال اللاجئين، هرعوا جميعهم إلى جانب واحد من القارب، مما أدى إلى انقلابه. يُفتح الباب ويظهر رجل أسود، يقول شيئاً ما بلغة لا يفهمها الزائر، ربما هي الهاوزا، فيحصل على إجابة، ثم يختفي من جديد. هل تلقيت التعليم في مدرسة؟ رشيد لا يجيد السباحة. يتمسك بكابل ليبقى بذلك فوق الماء. زاير أيضاً لا يجيد السباحة، يتسلق أثناء انقلاب المركب على حرفه البارز فوق الماء ليجد طريقه الى ظهر سطحه من حيث يتم إنقاذه. هل كان لديك مكان مفضل للاختباء أثناء الطفولة؟ ولكن 550 من العدد الإجمالي الذي بلغ 800 لاقوا حتفهم غرقاً. على شاشة التلفزيون يظهر سمك وفير على سير متحرك، تمسك به أيدي نساء في قفازات مطاطية، فتحوله بواسطة سكاكين ضخمة أثناء ثوانٍ لشرائح فيليه. التقيا من جديد في مدينة هامبورغ، فتعرفا فوراً، رشيد وزاير. ما زال النائم يشخر. كانا سوياً على مركب واحد. لقي 550 من 800 حتفهم غرقاً. لم يعد ريتشرد مهتماً بإنتاج السمك. يقول: ثرى هل بينكم من يتذكر أغنية؟ أغنية؟ لا. ما من أحد يتذكر، وهو أيضاً لا يفعل، وذلك أيضاً لا يتذكر. ولكن ها هو عبد السلام، الذي لم يتفوه حتى اللحظة بكلمة، ربما خجلاً من حَوْلِ عينيه، يرفع لأول مرة رأسه. يقوم أحدهم بخفض الصوت المنذع من التلفزيون، ملبياً بذلك رغبة ريتشرد التي لم يُبج بها، وينظر عبد السلام من جديد إلى أسفل، إلى يديه، ويبدأ في الغناء.

لا أحد في نيجيريا جهل هذه الأغنية. مهرجان إيو على جزيرة لاغوس. لاغوس؟ يمد إيتمبا الطويل يده ليمكّن ريتشرد من رؤية صورة على شاشة المحمول المكسورة: قبعات بيضاء، أثواب بيضاء طويلة حتى الأرض، وذقون بيضاء وشباك أمام الوجوه. هكذا تودع الأرواح ملكها المتوفى الوداع الأخير. يقفز بعضهم، فيظهرون على الصورة متقوسين على ارتفاع نصف متر فوق الأرض، وكأنهم جاءوا من الهواء وكانوا على وشك الهبوط. في يوم الأحد تعلن الأرواح نوات القبعات السوداء موكبها ليوم الأحد التالي، وفي يوم الاثنين تقفل كذلك نوات القبعات الحمراء، ويوم الثلاثاء نواتا لقبعات الصفراء، ويوم الأربعاء نوات القبعات الخضراء، والخميس نوات القبعات الأرجوانية.

وماذا تفعلون هنا طوال اليوم؟ يسأل ريتشرد بينما يومئ برأسه ناظراً إلى الشاشة المكسورة. يشعر بالراحة والامتنان للغة الإنجليزية التي لا تميز بين ضمير مخاطبة يرفع الكلفة وآخر ينم عن الاحترام الواجب للغريب، كما هو الحال في الألمانية. ربما هو الذي يفكر بالألمانية يوجه الحديث الى الرجال في الحقيقة بصيغة عدم الكلفة. ولكن ما الذي يجعله يفعل ذلك؟ إنه لم يخاطب حتى طلابه قط رافعاً الكلفة. نريد عملاً، يقول الكبير رشيد، ولكننا لا نحصل على تصريح بالعمل. ثم يضيف زاير: الأمر صعب، صعب للغاية. أما إيتمبا الطويل فيقول: كل يوم يمر علينا كغيره من الأيام هنا. ويتدخل عبد السلام في الحديث موجهاً نظرها إلى الأسفل: نحن لا نتوقف عن التفكير لأننا لا نعرف ما ستؤول إليه حالنا. يود ريتشرد أن يقدم إجابة ولكن بديهته لا تسعفه. يشعر بعد مرور أقل من ساعة من الاستماع بإعياء يفوق ما ينتابه بعد إلقاء إحدى محاضراته في الجامعة. ها هو عالم بأكمله لا يدرى عنه شيئاً ينهال فجأة على رأسه، أين له أن يبدأ بالتصنيف؟ يقول إنه يجب عليه الآن أن يودعهم، ولكنه سيعود مرة أخرى، لديه الوقت ليستمع بهدوء لكل ما لديهم. الوقت.

يلتفت مرة أخرى بعد أن أغلق الباب ليحفظ رقم الغرفة. يقرأ رقم 2017 على الباب الليموني الخضار، إنها الغرفة الثالثة يسارًا. تليها ستة أو سبعة أبواب أخرى ليمونية الخضار يتكرر مثلها على الجانب الأيمن المقابل. وفي النهاية حيث ينعطف الممر إلى اليمين يوجد شبك يتيح رؤية جدار بني اللون في الخارج؛ اصطفت على بسطة الشباك ثلاثة أزواج أحذية بشكل منظم. لم يكن ريتشرد قد لاحظ سابقًا أن إضاءة النيون التي تنير الممر ترتعش بين الآونة والأخرى.

13

حين عاد ريتشرد في اليوم التالي، أخبره مسؤول الأمن أن هناك مشرفًا على وشك الوصول ليرافقه إلى أعلى، إذ لا يجوز له الدخول وحده إلى المبنى.

Wsjow porjadkje

ظل اللاجئون مدة عام ونصف في وسط المدينة، حيث كان بوسع كل من شاء التحدث إليهم، بما فيهم هو شخصيًا، حتى بضعة أسابيع مضت، على مقعد المنتزه العام. ولكن منذ لحظة توقيعهم على الاتفاقية، أصبحت إدارتهم وإدارة شؤونهم واجبة. "هندسة بيروقراطية"، لقد قرأ ريتشرد هذا المصطلح منذ أيام في كتاب أحد المؤرخين عن مؤثرات الاستعمار. إذ تم خنق المستعمرين بالبيروقراطية، كوسيلة بالغة الدهاء لإعاقتهم عن العمل السياسي. أم هي هنا وسيلة لحماية الألمان الأخيار من الألمان الأشرار؟ تُرى هل تحمي "أمة الابداء" الشعب الألماني من خطر تسميته مرة أخرى "أمة القتلة"؟ يتذكر ريتشرد تعليق أحد القراء مجهولي الهوية على الإنترنت على موضوع صحفي عن اللاجئين أثناء وجودهم في ميدان أورانيين بلائس، والذي رأى أن تشغيل موقد غاز البروبان للطهي في خيمة قد يؤدي في أي لحظة لنشوب حريق. هل قام مجلس الشيوخ بحماية الأفارقة من خلال إيوائهم، أم بحماية نفسه؟ إن صح الاحتمال الأخير فإن إيواء الأفارقة في مكان أفضل لا يتعدى كونه مجرد قناع. وما الذي يخفي إذن وراءه؟ من يقوم هنا بتمويه من؟ الرجل الذي أشار إلى موقد البروبان قد يكون أيًا كان بما فيهم ريتشرد نفسه. أما الأفارقة فهم في الغالب لا يعرفون شيئًا عن هتلر، وعلى الرغم من ذلك فهناك علاقة تربط بينهم: إذا تمكنوا في الحاضر من البقاء في ألمانيا، فسيكون ذلك دليل إثبات هزيمة هتلر الحقيقية في الحرب.

المشرفة التي أتت لتصحبه إلى الطابق الأعلى سيدة أنيقة متقدمة في السن. يمران أمام غرفة البلياردو التي لا يوجد فيها أحد، الدرج، تفرعات الدرابزين، الضوء الأبيض، الإضاءة المرتعشة في الممر، الأبواب ليمونية الخضار. تطرق المشرفة باب الغرفة 2017 وتفتحه دون أن تنتظر ردًا، كما فعل مدير الدار في اليوم السابق. ثمة هيئات أشخاص راقدة على الأسرة، ربما يكون رشيد، زاير، إيتمبا وعبد السلام ضمن النائمين، لا يستطيع ريتشرد تبين ذلك من حيث يقف. لم يتم تشغيل التلفزيون بعد، ولا يبدر عن أحد رد فعل عند فتح باب الغرفة.

تغلق السيدة الباب من جديد وتخطو في اتجاه 2018، تطرق الباب وتضغط على المقبض، ولكن الباب لا يستجيب، إنه مقفل.

تطرق باب 2019 وتفتحه، يقع على الجانب الأيسر بمحاذاة الحائط سرير، يجلس عليه شخص يكئب شيئاً ما. أليس هذا هو الفتى الذي رآه ريتشارد على الدراجة في ميدان أورانيين بلاتس؟ إنه صغير جداً في السن، شعره مجعد غير مهذب. تسأله المشرفة إن كانت لديه رغبة في التحدث إلى البروفسور، فيرمي تعبيراً عن موافقته برأسه إلى الخلف، كما يفعل فرس عنيد. يضع الورقة التي دون عليها مفردات باللغة الألمانية على السرير بجانبه. تُبنت على الحائط فوق رأسه ورقة دونت عليها قائمة الأفعال الشاذة بالألمانية "رحل يرحل رحيل". يلحظ ريتشارد حين يجر الكرسي الوحيد الموجود بالغرفة ليجلس عليه وجود شخصين آخرين تحت أغطية الفرش في السريرين الآخرين. تقول المشرفة حين تلاحظ تردده: لا تبالي، ثم توميء له وتغادر الغرفة. الأمر إذن لا يهم. للحظة يفزع تصوره أنه سيكون على هؤلاء الشباب ان يشيخوا فجأة في هذا المكان؛ بعد طول انتظار ونوم؛ وما بينهما وجبات، طالما توفر المال لذلك؛ وفي ما عدا ذلك انتظار ونوم.

- من أي بلد أنت؟

ها هو ضمير المخاطبة من جديد الذي يرفع الكلفة. قد يرجع ذلك إلى فارق السن بينهما. من الممكن أن يكون حفيده. كما أن هينته وشكله متطابقان مع تصور ريتشارد لأبولو.

- دل دزرتو. هكذا يجيب الفتى بالإيطالية.

لقد داوم ريتشارد مع زوجته على حضور عدة دورات تعليمية للغة الإيطالية في توسكانا، كانت أولها في العطلة الصيفية بعد سقوط جدار برلين مباشرة. كان الدافع ولعه بالشاعر دانتي.

- لماذا تتكلم بالإيطالية؟

- لقد تلقينا دروس لغة طوال عام بأكمله في المعسكر. يقول كلمة المعسكر بالألمانية: im Lager.

- في لامبيدوزا؟

- لا، فيما بعد، في صقلية.

المعابد الاغريقية في أغريغنتو. الرجل فوق الدراجة النارية الذي انتزع حقيبة اليد من فوق ذراع زوجته. وكأنه أمام مشهد ديوراما يشمل 2500 عامًا ممتدة من العصور القديمة وحتى عصر الرأسمالية في آن معًا. يكرر سؤاله :

- من أي بلد أنت؟

- من الصحراء.

ليت ريتشارد يعرف بالضبط امتداد مساحة الصحارى. هل هو من الجزائر؟ من السودان؟ من النيجر؟ من مصر؟

يخطر بباله لأول مرة أن الحدود التي قام الأوروبيون بفرضها على القارة الأفريقية لا تعني الأفريقيين في شيء. لقد لاحظ عندما كان ينقب عن العواصم في الأطلس تلك الخطوط المستقيمة التي بدت وكأنها رسمت بالمسطرة، والآن فقط يتضح له مقدار التعسف الذي تنم عنه.

- من الصحراء، حسناً إذن.

ولكن ها هو الفتى يبتسم الآن، يبدو أن حيرة ريتشرد هي التي تدفعه إلى الابتسام. يقول : من النيجر.

إذن فلا بد أن تكون هذه غرفة النيجر. ولكن ترى أي شعب يعيش في النيجر؟

- هل أنت من اليوروبا؟

- لا، من الطوارق Tuareg.

ها هو من جديد لا يعرف شيئاً البتة. يعرف "Touareg" توارج" كمسمى لموديل سيارة. سمع مرة شيئاً عن أوشحة زرقاء يلبسها الرجال. هل من معلومات أخرى؟

- أب؟ أم؟

- لا، ليس لدي والدان.

- ليس لديك والدان؟

يرمي الشاب الصغير برأسه إلى الخلف. قد يعني ذلك "نعم" أو "لا".

- أليست لديك أسرة؟

يسكت الصبي. ما الذي يجعله يُخبر رجلاً غريباً أنه لم يعرف أبداً أسباب يُتمه. الصحراء شاسعة. إذا عرف المرء كيف تتحرك كثبان الرمال، يمكنه التعرف على الرمال تحت الرمال. إنه لا يعرف إن كان والداه ما زالوا على قيد الحياة. كانت هناك معارك في الوقت الذي ولد فيه. ربما كانت أمه أو كان أبوه ضمن من قام عساكر النيجر بدفنهم أحياء تحت الرمال. أو بتقطيعهم. أو بحرقهم وهم على قيد الحياة. لقد تداول الناس حكايات من هذا القبيل. وربما تمت سرقة من والديه. كان عليه دوماً أن يقوم بعمل العبيد، منذ أن وعى الوجود؛ مع الجمال، مع الحمير، مع الماعز، من الصباح وحتى المساء. ما الذي يجعله يُطلع رجلاً غريباً على ندباته التي خلفتها ضربات من يسموا بالأسرة على رأسه وعلى ذراعيه؟ ودوا أن يضربوه حتى الموت. لم يكن له أصدقاء سوى الحيوانات.

- يقول الفتى: إذا كان على أحد الوالدين أن يعمل، يبقى الصغار لدى الخالة.

- مفهوم.

يتقلب أحد النائمين ويجذب الغطاء ليحكمه حوله.

- أي لغة كنت تتحدث حيث نشأت؟

- تماشك.

- هل هي لغة الطوارق؟

- نعم.

- هل تفهم أيضاً لغة هاوزا؟

- نعم.

- واللغة العربية؟
- نعم.
- والفرنسية؟
- نعم.
- وأنت الآن تتعلم الألمانية؟
- نعم.
- أنت تجيد الكتابة، هكذا يعلق ريتشرد بينما يشير إلى الورقة التي وضعها الصبي بجانبه على الفراش، والتي لم تكن عليها سوى حروف ألمانية.

هل يحكي للرجل الغريب أن أبناء مُلاك القطعان كانوا يجلسون مع أمهاتهم أمام الخيام لتعلم "تيفيناغ"—كتابة الطوارق—في الرمال، بينما كان عليه أن يحلب الجمال مرة أخرى قبل حلول الليل؟ كان يرى الأشكال محفورة في الرمل قبل أن تمحوها الرياح مع حلول الصباح التالي، كما كان يراها على السيوف، وعلى جلود الحيوانات وعلى الصخر في الصحراء: الصليب، الدائرة، المثلثات والنقاط—كم كان يود أن يعرف معناها. رأى، يرى، رؤية.

لم يكن ذلك ممكناً لأنه كان "أكلي"، أي عبداً. كان يقرأ فقط النجوم: أخوات الليل السبع، مُحارب الصحراء، الناقة وقعودها.

قد يكونا والداه قد نسياه ببساطة؟ أو باعاه؟

تبيّن ريتشرد في هذه اللحظة الأخاديد الأربعة المحفورة في جلد الصبي على كل من وجنتيه، والتي لم يكن قد لاحظها من قبل.

- ما هذه العلامة؟
- إنها علامة إحدى قبائل الطوارق.
- هكذا.

ها هو يسأل ويحصل على إجابات، ولكنه في الواقع بالرغم من ذلك لا يعرف المزيد.

- كيف كان سكنكم؟

يمسك الشاب بهاتفه المحمول وينقب فيه، ليري ريتشرد صورة فوتوغرافية، يظهر فيها كوخ كبير مستدير يعلوه سقفٌ على شكل قبة.

أبولو لديه إذن جهاز محمول ذكي.

- يعمل ثلاثة رجال لمدة يوم بأكمله من أجل بناء مثل هذا الكوخ — هكذا يشرح أبولو—يستخدمون عيدان القصب وسُعف النخيل وجلود الحيوانات والقضبان والحُصر المجدولة. وحين يتوجب على

المرء الرحيل لمكان آخر، يُزيل الكوخ ويرحل—سعف النخيل والقصب ورماد النيران تؤول من جديد إلى الصحراء التي سرعان ما تبتلعها.

- وماذا عن جلود الحيوانات والحُصر، ألا يأخذها معه؟
- نعم، كما يأخذ القضبان، إذ أن الشجر نادر في الصحراء.
- وماذا عن المواعين، أدوات المنزل، الملابس، وغيرها من الممتلكات؟ ألا يأخذها هي أيضاً؟
- بلى.
- وهل يمكن نقل ذلك كله على بعض الجمال؟
- نعم.

لقد قام ريتشرد وزوجته منذ عشرين عامًا عند انتقالهم إلى بيتهم الحالي بحزم ثمانين كرتونة كتب، إلى جانب الصناديق التي حوت المواعين والملابس والأثاث والسجاد والصور والمصابيح والبيانو والغسالة الكهربائية والثلاجة؛ تم نقلها آنذاك على متن شاحنة كبيرة امتلأت حتى آخر سنتمتر مكعب فيها بكل ما يملكون.

- يضيف الولد قائلًا: إلى جانب المواد الغذائية بالطبع.
- لأي مدة تكفي المواد الغذائية؟
- ربما لمدة شهرين، وأحيانًا ثلاثة أشهر. يتوقف ذلك على المسافة التي يتم قطعها.
- لشهرين أو ثلاثة شهور؟
- نعم. تُحمَل الجمال—يكرر الفتى ما قاله من قبل—تُزال الأكوخ ويرحل المرء. يقوم بحركة بيديه، يبين من خلالها ان ما يتركه المرء خلفه هو ما سَوَى به الارض، ثم يقول: كما حدث في أورانيين بلاتس. أزال ، يزيل ، إزالة.

أدرك البروفسور المتقاعد الذي تلقى في يوم واحد كمًا هائلًا من المعلومات الجديدة، وكأنه عاد لمرحلة الطفولة، أدرك فجأة أن ميدان أورانيين بلاتس ليس مجرد ساحة قام مصمم الحدائق الشهير لينيه في القرن التاسع العاشر بتصميمها، أو مكانًا تقوم فيه عجوز بتسريح كلبها، أو فتاة بتقبيل صديقها لأول مرة على مقعد المنتزه. أدرك أن الميدان بالنسبة لصبي نشأ بين البدو الرحل ومكث فيه مدة عام ونصف، يشكل محطة فحسب على طريق طويل، مكانًا مؤقت ينتقل منه إلى مكان عابر آخر. عندما تمت إزالة الخيام من الميدان بناء على قرار سياسي اتخذه عضو مجلس الشيوخ النائب عن مدينة برلين، تذكر هذا الفتى حياته في الصحراء.

أما ريتشرد فخطر بباله موقف عايشه أثناء حضور حلقة دراسية في جنوب النمسا، حيث قام بالتنزه بين كروم العنب بصحبة زميل من فيينا، توقف آنذاك فجأة واستنشق الهواء بعمق، ثم سأله إن كان هو أيضا يشم ريح الشيروكو الآتية من افريقيا عبر جبال الألب، والتي تصل أحيانا محملة برمال الصحراء. وبالفعل رأى ريتشرد على أوراق العنب حبات الرمل الدقيقة النازحة من أفريقيا والمائلة إلى الحمرة. لقد مسح حينذاك على إحدى الوربيقات، فلاحظ في التوكيف أدت تلك الحركة إلى تغيير وجهة النظر والمقياس اللذين يحكمان رؤيته للأمور. وها هو الآن يمر بلحظة مماثلة، تذكره بعدم أفضلية منظور إنسان مقارنة بمنظور إنسان آخر. فوجهة النظر من الأمور التي لا ينطبق عليها معيار الأحقية أو عدم الأحقية.

يطرق في تلك اللحظة أحدهم الباب، ويفتحه قليلاً ليطل منه وجه لم يره من قبل.

اسمه عواد، لقد تنامى إلى سمعه أن هناك من يود أن يستمع إلى قصته. إنه يسكن في الغرفة رقم 2020 المجاورة. يمد يده لتحية ريتشرد، ويوميء، ثم يغادر الغرفة من جديد.

يسأل ريتشرد الفتى: والآن؟

فيجيب قائلاً: لا شيء.

- هل تحصلون هنا على المال؟
- نعم، منذ أسبوعين. ولكن ذلك لا يروق لي، أفضل أن أحصل على عمل.
- تريد عملاً.
- عمل.

يشعر ريتشرد برغبة ملحة في مغادرة المكان. هذه الأحاديث ترهقه بقدر أكبر مما تصور.

- سأعود مرة أخرى.

يقول ذلك كما يتحدث طبيب إلى مريض رغم ما لديه من شك حول فرصة بقائه على الحياة حتى اليوم المقبل. ولربما يكون هو المريض؟ فسد، يفسد، فساد. مازال الرجلان الآخرا نائمين. يودع ريتشرد الفتى الذي يطابق شكله تصوره لهيئة أبولو.

اصطفت زجاجات الماء والمشروبات بنكهة الفواكه والبييرة في مدخل السوبرماركت الذي كان يسمى فيما سبق قاعة التسوق Kaufhalle، يليها موقع الخبز، ثم مكان الفاكهة والخضروات، الخيار والخس الملفوف. أما الثلجة فتحتوي المقانق والأجبان. لا ينسى أيضاً الفجل الحار، ثم معجون الأسنان، ولفائف ورق المطبخ والجرابات؛ أما الرف الأخير قبل خزينة الدفع فيلتقط منه عيدان الكبريت وبطاريات للمذياع الذي يستمع اليه في الحمام. القيمة الإجمالية 32 يورو و90 سنتاً، لحظة من فضلك، لدي قطع عملة صغيرة، بإمكانني أن أدفع بالبطاقة، لا، لا داعٍ لذلك، لا حاجة لذلك، تمام هكذا. هذا هو عالمه، العالم الذي يعرفه جيداً. هو لم يشتر قط في حياته كمًا من المواد الغذائية لتكفيه لمدة شهرين أو ثلاثة، لم يحدث ذلك حتى اثناء خطر عدوى انفلونزا الطيور. يدون قبل أن يغادر المنزل احتياجاته وفقاً لترتيب مواقعها على الرفوف في السوبرماركت منذ أن يدخله وحتى يخرج منه. سيعرف دومًا حتى لحظة رقاذه على فراش الموت موقع الرف الذي تصطف عليه زجاجات البييرة.